# مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

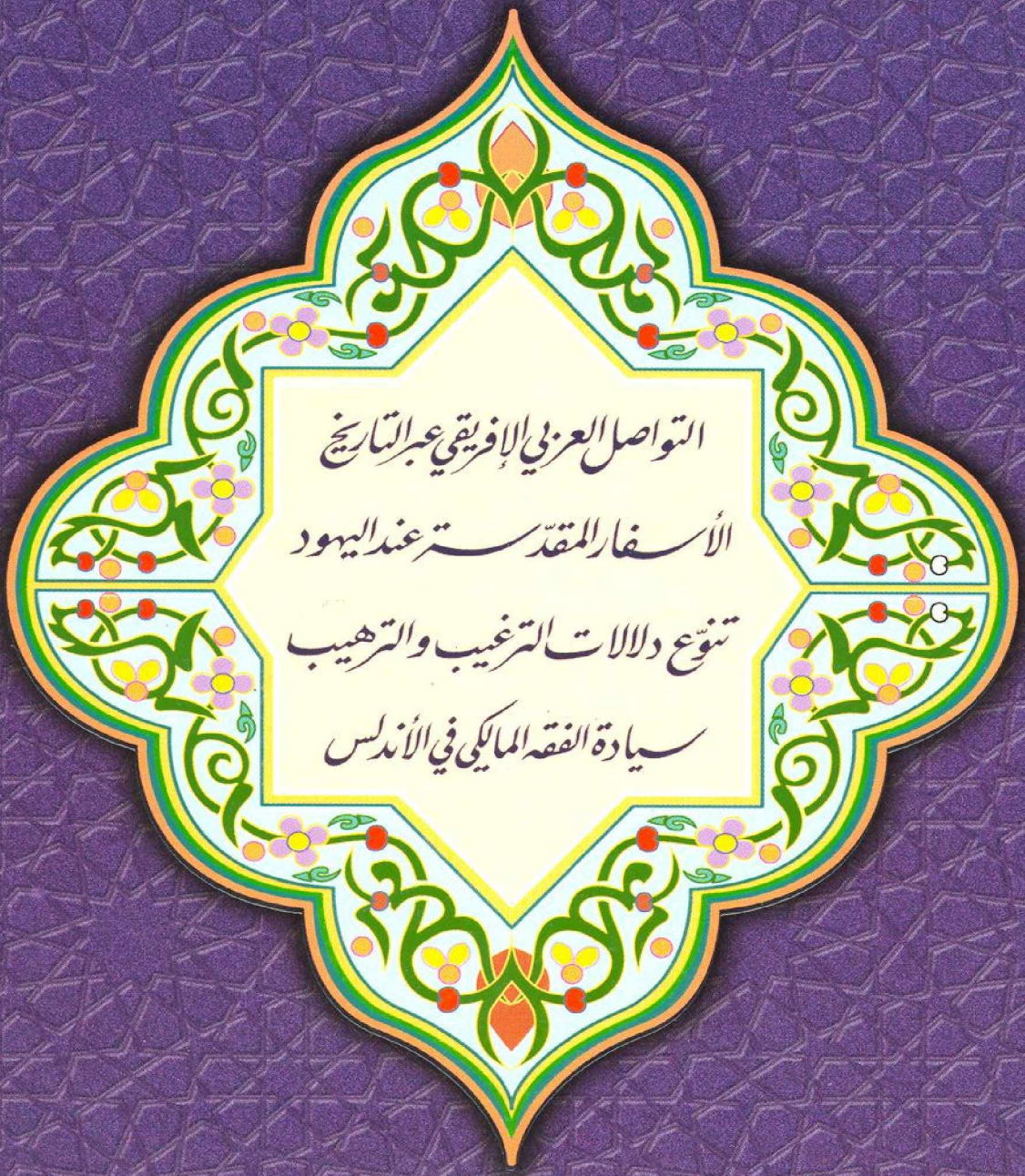

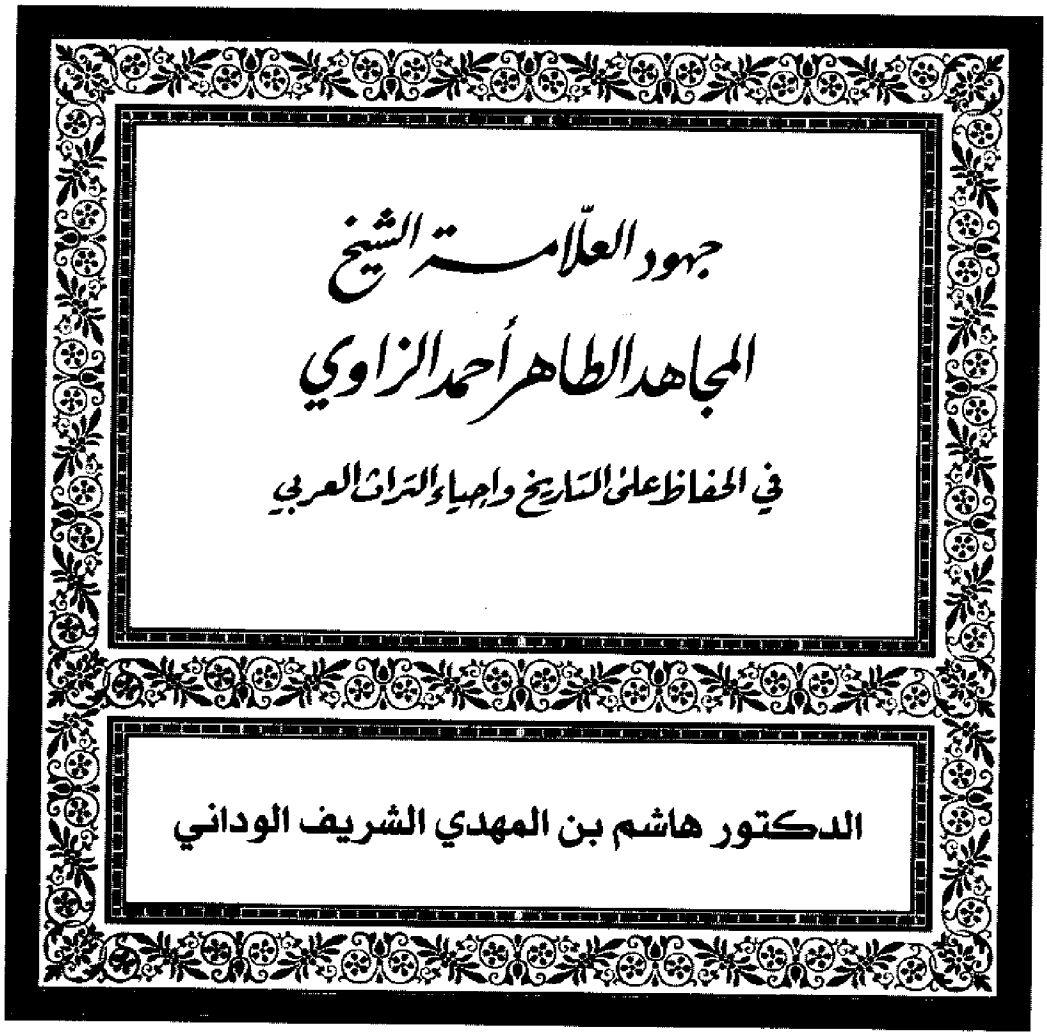


التراث لأي أمة هو الصلة الوثقى بين الماضي والحاضر، وهو أيضاً آية القدرة والفعالية للأمة على مغالبة الصعاب والصمود لاجتياز الشدائد والمحن التي قد تتعرض لها الأمة في حياتها، وذلك بما يبعثه من ثقة ويشعه من أمل في نفوس أبناء الأمة المتطلعة إلى تحقيق حياة أفضل كريمة.

ولا نرتاب في أن تراث أمتنا الموحّدة الواحدة هو دعامة من دعامات النهضة التي تنشدها أمتنا، وهو من أغزر روافد الفكر وأغنى مصادر ثقافتنا وأخصبها، وليس بخافٍ أن جل هذا التراث مبعثر بين المكتبات الخاصة والعامة في أرجاء المعمورة، القليل منه معروف وأكثره مخطوط مجهول يصعب الانتفاع به إن لم يكن مستحيلاً إن ظل كذلك. وقد أدرك الرعيل الأول من أفذاذ هذه

الأمة المعطاءة أن عليهم واجباً نحو التراث والأمة معاً، فشمروا عن سواعدهم نابذين الراحة راضين بما تيسر من عيش الكفاف، فالتفتوا إلى هذا التراث ومضوا ينقرون في المكتبات يفحصون أكوام الأوراق التي تكدّس عليها الغبار وعاثت في ربوعها الأَرَضَةُ وغيرها من الحشرات، ليختاروا ما يرون أن الحاجة إلى بعثه ونشره أَمَسُّ، ومضوا يستخدمون منهج الأسلاف العلمي في التحقيق والتوثيق والتصويب، وقد أثمرت هذه الجهود الفردية ـ بفضل الله سبحانه ـ التي لم يكن لها من دافع سوى الغيرة على التراث وحب الخير للأمة والإنسانية قاطبة محتسبين الأجر عند الله، تبارك وتعالى، فهو الذي لا يضيع أجر من عمل صالحاً أبداً.

ولقد كان العلامة المرحوم الشيخ الطاهر أحمد الزاوي من هذه العصبة المؤمنة بقدسية التراث الذي أفنى فيه الأجداد أعمارهم الزكية، فانطلق بقدر ما سمحت له ظروف الحياة التي كان يغالبها حتى آخر أيام حياته، واستطاع بتوفيق من الله أن يقدم جملة صالحة من الأعمال العلمية النافعة في ميدان خدمة التراث وتيسيره للقراء للانتفاع به، ذلك إلى جانب ما ألفه من أسفار ذات قيمة في التاريخ والجغرافيا والتراجم والفتيا واللغة والأدب والأمثال.

من هذه المؤلفات الشائقة ما سطره في تاريخنا الوطني بعنوان. . «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» وهذا السفر جليل مفيد، سدّ به، رحمه الله، نقصاً في المكتبة العربية ما كان ليسد لولاه آنذاك. وقد أوضح في مقدمته لهذا الكتاب الأسباب التي حدت به إلى تسطيره بقوله: «ومما كان يحزّ في نفسي أني حينما كنت أطالع فتح إفريقية في كتاب ما، لم نجد فيه من آثار الفتح العربي في ليبيا ما يعطي للقارىء صورة لهذا الوطن العربي وأعمال العرب فيه، فأدركت أن ما يتعلق منه بليبيا لا يزال مبعثراً في بطون الكتب، ويحتاج إلى جمع وتنسيق، فأردت أن أقوم بهذه المهمة كفاء لما لطرابلس علينا من فضل التربية وحقوق الأمومة، وقياماً بواجب الوطن، وما يتطلبه في حياته الجديدة من تضافر جهود أبنائه على تدعيم نهضته الثقافية»[1].

(1) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 6.

وهكذا يظهر لنا جلياً من هذا الذي ذكره المؤلف أن حب الخير والحرص عليه وعلى الأمة هو الذي حمل المؤلف على التنقير في بطون المصادر القديمة والحديثة؛ ليجمع ما تفرق من أخبار ومعلومات في المصادر ويقدمه منسقاً في كتاب، مساهمة منه في إرساء القواعد العلمية السليمة التي يجب أن تُتَّبَع في العمل من أجل نهضة الوطن المتحفز، وغير خافٍ أن مثل هذا العمل كان يتطلب من المؤلف ـ رحمه الله ـ الصبر الطويل والدأب والمعاناة، مما لا يستطيعه إلا من كان له إيمان وعزيمة مثلما كان للشيخ المجاهد الزَّاهِد في ملذات الحياة والراحة.

كان الشيخ الطاهر رحمه الله مثالاً للعالم المتواضع، فلم يدَّعِ لعمله الكمال، وكان أميناً لم يُخْفِ مصدراً رجع إليه واستقى منه، وهكذا مضى يسجل جميع المظان التي رجع إليها «ورجعت إلى كل كتاب علمت أنه يتصل بالفتح العربي في ليبيا من قريب أو بعيد، وأخذت منه كل ما يتعلق بليبيا»[2].

وهو يتعشم أخيراً أن يكون قد كشف حلقة من تاريخ قطر من أقطار العروبة كانت مطموسة، وأن يفتح أمامهم باب البحث لإكمال الناقص من تاريخ ليبيا، على أن كتاب الفتح العربي في ليبيا يعتبر اليوم مصدراً من مصادر التاريخ الليبي، فقد حشد فيه المؤلف مادة تاريخية غزيرة ومهمة تنير السبيل لكل دارس للتاريخ الليبي.

هذا ومن يقرأ ما سطر المغفور له الشيخ المجاهد الطاهر أحمد الزاوي في تاريخ الفتح العربي في ليبيا يدرك أن حديث مؤرخنا عن الفتح لم يكن مجرد لملمةٍ للأخبار أو جمعٍ وتكديس للروايات المتناثرة في الأسفار هنا وهناك، بل كان إلى ذلك صاحب نظر يعمل العقل والفكر والنقد فيما ينقل ويسطر، فكان يقلب الروايات ويفحص الأخبار ويقارن بينها ليتبين وجه الصواب الذي يمكن الاطمئنان إليه والتسليم به، وإذا كان له رأي أو تعليق على خبر أو رواية سجله

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 6.

مبيناً ما يراه أو يرجحه، وهو في كل ذلك صاحب منهج واضح بين حين يوازن بين الروايات المتضاربة باحثاً عن العلل المقنعة والأسباب الوجيهة المنطقية المدعمة بالأدلة والقرائن الثابتة[3] وهذا هو سبيل المؤرخ الثبت الثقة الذي يجعل نصب عينيه البحث عن الحقيقة التاريخية وإبرازها جلية واضحة مقنعة لا لبس فيها.

ولا ريب في أن همّ مؤرخنا الأكبر الذي عرفته منه منذ أول ما عرفته في دار الهجرة بأرض الكنانة سنة 1959، والذي يظهر جلياً في جميع أعماله العلمية، هو بعث الأمل في نفوس شباب الأمة وإحياء الثقة بأنفسهم وقدراتهم من أجل حضهم على العمل وتحفيزهم لبناء الوطن الموحد، وهكذا فقد كان، رحمه الله وأوسع له في الجنات، مثالاً حياً للوطني الغيور الحريص على مصلحة البلاد والأمة جمعاء، بعيداً عن التعصب محذراً من الانسياق وراء العواطف الهوجاء والنزوات الذميمة التي تفرق بين الجماعة وتبدد الجهود، وهذا عين ما جعله يقف مرات عديدة مبدياً عجبه مما يسوقه بعض المؤرخين ـ أو يكتب في التاريخ ـ من روايات غريبة غير معقولة يلقونها وكأنها مُسلَّمات لا تقبل جدلاً ولا حواراً، ثم إنهم لا يعلقون عليها بشيء، ونراه يسوق مثالاً لذلك وهو ما ذكره الأستاذ المرحوم بيرم وقد جعله سبباً لاحتلال الإسبان طرابلس[4]. مما جعل مؤرخنا المرحوم الشيخ الطاهر يقف ليناقش بالعقل والمنطق هذه الرواية، عاملاً فيها ميزان النقد ليصل بعد ذلك إلى ما يمكن أن يقبله العقل ويقره المنطق ولا يدحضه النقد في هذه الرواية.

بدأ مؤرخنا الشيخ الطاهر الزاوي الكلام في كتابه «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» عن الاسم «لوبيا» في التاريخ، هذا الاسم الذي حاول بعض مؤرخينا التشبث به فيما بعد، ثم مضى الشيخ الطاهر يسرد أقوال بعض المؤرخين من أمثال ابن تغري بردي وأبي الريحان البيروني، وقد نقل عنه تقسيم اليونان

(3) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 31.

(4) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 276 ـ 277.

للمعمورة، ولكنه لم يتركه بل لقد علّق عليه بما دل على اطلاع كاف وثقة، حيث قال: «إن هذا التقسيم اليوناني لا سند له من التاريخ»[5] وكان هذا التعليق بعد مناقشة علمية مستفيضة، استعرض أثناءها أقوال المؤرخين الثقاة من أمثال المقريزي، وما نقله هذا المؤرخ الثبت عن القضاعي صاحب الخطط ليثبت أن المنطقة، المسماة «لوبيا» تقع ضمن الأراضي المصرية شرقي حدود برقة، ثم قال: «إن إطلاق كلمة لوبيا على برقة وطرابلس إطلاق ظلموا به ذلك الشعب العربي الذي ما ينفك ينتسب إلى العرب»[6]، ثم انتقل بعد هذا إلى الحديث عن سكان ليبيا القدماء مستعرضاً بإفاضة وتدبر، كعادته دائماً، أقوال العلماء المختلفة في أصولهم ودياناتهم وقبائلهم، ولم يغفل الحديث عن الأمم التي سكنت الشمال الإفريقي كالفينيقيين والروم والوندال، مبيناً أن الفينيقيين ـ كما هو معلوم ـ أمة سامية عربية قديمة[7].

وبعد هذه المقدمة المركزة الشاملة باشر مؤرخنا الحديث عن فتح العرب بُرْقَةَ وما وراءها من البلدان الليبية والإفريقية[8]: هذه لمحة سريعة عن هذا المؤلف الشائق الذي ضم بين دفتيه مادة تاريخية هامة نقر عنها مؤرخنا وجمعها من المصادر والمظان المختلفة، ثم إنه لم يتركها من غير بحث أو مناقشة كلما اقتضت الحاجة ذلك من أجل إصلاح خطأ أو إزالة إبهام ولبس، وفي كل ذلك يتبين القارىء مدى الجهد الذي أنفقه الشيخ المرحوم الطاهر الزاوي ليضع لبلاده وأهله تاريخاً شاملاً للفتح العربي في ليبيا، ذلك الفتح المبين الذي أرسىٰ قواعد التوحيد ودين الفطرة والوحدة، وقضى على الشرك والوثنية في ليبيا وإلى الأبد إن شاء الله تعالى.

لقد أجهد مؤرخنا نفسه غاية الجهد من أجل كتابة هذا التاريخ المشرق الزاهي لهذا الوطن الذي أحبه، وأفنى عمره مجاهداً صامداً في سبيله، ففي كل

---

(5) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 11.
(6) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 12.
(7) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 23.
(8) تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 30.

عبارة من عباراته يتبين المصنف أن حب الشيخ لهذا الوطن أضناه، فلم يَشْكُ ولم يتعب ولم يكترث بما كان يعانيه من أجله في القديم والحديث على السواء، وكان في كل هذا محتسباً الأجر عند خالقه سبحانه وتعالى، ولا ريب في أن التاريخ الأمين مستحفظ وسينصفه وأمثاله ممن ضحوا بالراحة وزهدوا في نعيم الحياة ورغد العيش في سبيل الوطن المُفدَّىٰ، كما أنه سيدين آخرين ممن فرطوا في حقه وأساءوا إليه وعقوه.

هذا عن تاريخ الفتح العربي في ليبيا، وأما عن كتابه النفيس الثاني «جهاد الأبطال في طرابلس الغرب» فالحديث يطول، ولا أحسب أن هذا مكان الحديث الضافي عنه، وسأتركه لوقته ومكانه، وربما لمن هو أجدر بالحديث عنه من المتخصصين في علم التاريخ، ومع ذلك فإنني ألاحظ أن الشيخ الطاهر الزاوي قد بذل جهداً محموداً خصباً، حيث أرخ في هذا السفر للجهاد والمعارك الحربية التي خاض غمارها الآباء والأجداد، وأبلوا فيها البلاء الحسن ضد الصليبيين الغزاة الذين تقيأتهم أوروبا البربرية، وذلك ليبين أن الاستقلال الذي حظيت به ليبيا لم يكن هدية، ولكنه ثمرة كفاح طويل مرير خاضه شعبنا العربي المؤمن الموحِّد، وعانى في سبيله القتل والتشريد والنفي والتعذيب. فاستقلالنا منتزع انتزاعاً في ميدان القتال الذي هب إليه الشعب العربي الليبي هبة رجل واحد، على الرغم من قلة الإمكانات وعسر الظروف وتكالب ذوي المطامع والأغراض الدنيئة عليه، ولم يكن للشعب الليبي في هذه الحرب من عتاد أو زاد سوى الإيمان بالله والوطن وقدسية الدفاع عن الذمار والمقدسات التي كان الليبي يعيش دوماً محافظاً عليها مضحياً من أجلها بالنفس والنفيس.

هذا هو أحد الأسباب التي حملت المؤلف على كتابة هذا التاريخ للجهاد وأبطاله، وثمة سبب آخر وهو خوف المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ على الحقائق الجلية في الحرب الطرابلسية من الضياع أو التزييف، وزاد من قيمة هذا الكتاب أن المؤلف نفسه ممن اشترك في الجهاد وخاض المعارك وأعد لها وتفاعل معها كما بين كل ذلك في كتابه، وما لم يشاهده بنفسه تلقاه رواية عن رواة ثقات،

عاشوا الأحداث، وأبلوا في المعارك الحربية وتحمل بعضهم عبء المسؤولية وشرف القيادة[9].

ولقد أحسن مؤرخنا المجاهد الصنع بتأليفه هذا الكتاب. وبذلك وضع النقاط على الحروف قبل أن يقوم المزيفون بتغيير الحقائق أو نسبتها لأنفسهم أو لغيرهم ممن يحابون ممن ليس لهم فيها شأن ولا باع، وفي صنيع مؤرخنا الشيخ الطاهر الزاوي حفظ للحقائق وحرص على الأمانة وكشف لستر الخونة والعملاء والدخلاء على حركة الجهاد، والشيخ الزاوي في كل هذا يبدو مؤرخاً أميناً لا يحرص على شيء قدر حرصه على تجلية الحقائق وقراءة الأحداث بعقل ورويّة للوصول إلى الصائب من الأحكام والنتائج المقنعة، ولهذا نراه يتتبع الروايات المختلفة ممحصاً ليشرك القارىء الذي يعنيه أن يقف على الحقيقة ويعرف الصواب حتى يستخلص بنفسه النتائج ويقرر الأحكام.

والكتاب بعد ذلك ـ كما يقرر مؤلفه ـ وثيقة تاريخية، ومن أصح ما سطر من الوثائق المتعلقة بحركة الجهاد الليبي ضد الغزو الفاشيستي الإيطالي، وقد ضم الكتاب جملة من الحقائق التي لا يرقى إليها الشك مما رآه المؤلف بنفسه وعاشه في ميدان الكفاح المسلح، ذلك إلى جانب ما تلقاه من الزعماء الذين كان لهم شرف رياسة حكومات المجاهدين، والذين كانوا يفاوضون ويديرون المكاتبات والمعاهدات بين المجاهدين وأعدائهم من الإيطاليين، كما أنه قد روى عن الأبطال الذين خاضوا غمار المعارك بصفتهم قواداً أو جنوداً يدافعون عن حمى الوطن والعقيدة[10].

ومما يزيد في أهمية الكتاب والاطمئنان إلى صحة ما حواه من معلومات عن الحرب الليبية الإيطالية أن مؤلفه كان من المجاهدين الذين شاركوا في المعارك بسيفه وقلمه، وأنه لم يضيّع الوقت في الانتظار قبل التدوين، حيث إنه قد باشر تأليف كتابه هذا بعيد استقراره في مصر، وهو ما يزال يتمتع بالقوة وصفاء الذهن وحدة الذاكرة التي اختزنت أحداث الجهاد، فكان يتذكر كلّ ما

---

(9) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب: .

(10) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب: 533.

مرّ به أو روي له عن المعارك بالإضافة إلى ما كان قد دونه عن هذه الحرب المقدسة أولاً بأول مما يؤكد حرصه الشديد وعنايته الفائقة على إثبات الحقائق وحفظ التاريخ من أن يعبث به عابث في يوم من الأيام.

ولم يشأ المؤلف رحمه الله أن يستغل المغرضون والمشككون اسم كتابه لخدمة أغراض الوقيعة والفتنة بين أفراد الأمة. فراح يبين للجميع ما حمله على اختيار هذا الاسم المعروف به الكتاب وهو «جهاد الأبطال في طرابلس الغرب» وبهذا تتأكد لنا صفات أخرى من صفات الشيخ الحميدة الجليلة. وهي صفات الصدق والإخلاص والاستقامة والوضوح وصواب الرأي والجهر به، وذلك حين يقول معللاً لاختياره الاسم: «ولم اسمه جهاد الأبطال في ليبيا» أو «في طرابلس وبرقة» لسببين: الأول أنّ كلمة ليبيا لم تكن رسخت في أذهان الناس وقت تأليفه، لأنها أحدثها الطليان فيما بعد، وفي اعتقادي أنهم أحدثوها لغرض سياسي هو القضاء على كلمتي طرابلس وبرقة العربيتين، وأقرت بعد استقلال ليبيا، واتفق على إطلاقها على هذا الجزء من إفريقية الواقع بين حدود مصر وتونس.

والسبب الثاني أن معلوماتي عن الحرب في طرابلس أكثر وأصح سنداً من معلوماتي عن الحرب في برقة، لأني شاهدت الكثير من الحرب في طرابلس، وما لم أشاهده رويته عن الثقات الذين عرفتهم عن كثب واطمأنت نفسي لصدقهم لصلتي الشخصية بهم وحضوري الكثير من اجتماعاتهم.

أما حروب برقة فلم أشهد منها شيئاً، وقد بذلت جهداً كبيراً للوصول إلى ما رويته منها، وهو جد قليل، لذلك كانت تسمية جهاد الأبطال في طرابلس الغرب»[11] ومن كل هذا نتبين مقدار ما يتحلى به شيخنا المجاهد المؤرخ الطاهر أحمد الزاوي من حرص على الحقيقة وتمسك بالحق وحفاظ على الأمانة وشعور بالمسؤولية، كل هذا يتجلى في بيانه بأن المعلومات المدونة في الكتاب عن الجهاد في طرابلس أكثر وأصح سنداً وأوثق رواية من المعلومات التي دونها

(11) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب: 533.

في ذات الكتاب عن الحرب في برقة، إذ إن المعلومات عن الحرب الطرابلسية عاشها المؤلف وشاهدها بعينه، فهو ممن عانى آلامها وتكبد تبعاتها، وما لم يتح له أن يعشه أو يعانيه منها تلقى أخباره عن الثقات الذين عرفهم وخبر فيهم الصدق والأمانة والإخلاص للحقيقة، فاطمأن إلى رواياتهم وأثبتها. وهو يعترف بأن ما رواه عن الحرب في برقة لم يشاهد منه شيئاً، وأنه قد بذل جهداً مضنياً من أجل الوصول إلى حقيقة ما رواه منها على قلته[12].

إذن هذه جملة الأسباب التي جعلت المؤلف الشيخ الطاهر يسمي كتابه بهذا الاسم المتداول اليوم، وهو ما ينطبق تمام الانطباق على الكتاب، وقد أصاب في اختياره الاسم كما نرى، فهو اسم إلى الحقيقة أدنى وادعى إلى أن يصدق على ما سطر من أخبار المعارك في حرب الجهاد التي أبلى فيها المجاهدون الأبطال زهاء ربع قرن في طرابلس الغرب، على الرغم من الطرفين لم يكونا متكافئين، حيث إن العدو الفاشيستي كان مزوداً بأحدث الأسلحة وأفتكها إذ ذاك، في الوقت الذي لم يتوفر لدى المجاهدين سوى الإيمان بالحق وقدسية الوطن وواجب الدفاع عنه، وعلى هذا فقد تدافعوا إلى ميدان الحرب بما يملكون من بسيط العتاد غير عابئين بالموت حينما علا النفير. وصاح الداعي حَيَّ على الجهاد.

أما مؤَلِّف الشيخ الطاهر الزاوي الذي يلي كتاب جهاد الأبطال في طرابلس الغرب فهو كتاب (أعلام ليبيا)، وهذا السفر هو أول كتاب من نوعه ضم بين دفتيه من تراجم الأعلام الليبية ما لم يجتمع في كتاب سواه، ولم يقصره المؤلف، رحمه الله تعالى، على نوع واحد من الأعلام، بل لقد جمع العلماء من أي نوع كما يصرح بذلك المؤلف في المقدمة، فقد ترجم فيه الزاوي للفقيه والمفسر والمحدث والنحوي واللغوي والفرضي، كما ترجم فيه للشعراء والكتاب والأدباء والصحفيين والشجاع والكريم والثائر ورئيس القبيلة الخ ما جاء في المقدمة[12].

---

(12) أعلام ليبيا 7.

هذا ولم يغفل الحاكم العادل والقاضي المنصف والمفتي الشرعي والعابد والزاهد، كل هذه النماذج المضيئة ترجمت في هذا الكتاب الشائق الذي يوقفك على ما في هذا البلد من أفذاذ الرجال، الذين هم مفخرة للوطن على مدى العصور والأزمان. ولم يدّعِ المؤلف، رحمه الله، أنه قد أوجد هذه النماذج من العدم، ولكنه بكل تواضع العلماء يعلن أن ما ضمه معجمه من الأعلام إنما كان مفرقاً في كتب التراجم والرحلات والتاريخ، ولم يقدر لها قبل الآن أن تجمع في كتاب[13] وبمثل هذه الكثرة التي نجدها في كتاب الزاوي، وتزداد قيمة المؤلف ويرتفع قدره ويعلو شأنه أكثر حين نراه يقر لسابقيه بفضل الريادة والتقدم، من أمثال مؤلف (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) فقد كان هذا الكتاب من مصادر الزاوي التي استقى منها واستفاد من مصادره التي ذكرها في التأكد من صحة المعلومات واستدراك ما سها عنه أو فاته[14].

ويرى الشيخ الطاهر أن فضل النائب الأنصاري الأكبر هو ترجمته لأعلام في العهد التركي، لم يكن في الإمكان معرفتهم لو لم يترجم لهم النائب رحمه الله وأوسع له، وكما ذكر المؤلف فضل النائب وأشاد بصنيعه لم يغفل أن ينبه على ما للأستاذ محمد خليل غلبون مؤلف كتاب (التذكار) من أيدٍ جليلة كريمة في تقييده بعض التراجم التي تميزت بالتحري والتمحيص والتحقيق مثبتاً الصواب منبهاً على الخطأ الذي فيها[15].

هكذا يمضي الزاوي في منهجه العلمي القويم ذاكراً المصادر مبيناً قيمتها ومقوّماً ما فيها من المعلومات من ذلك (مختصر تارخ البرموني) الذي نقل منه بعض التراجم للأعلام الذين ذكرهم في معجمه، وبين أنه قد استفاد من مختصر كتاب البرموني معلومات عن بعض القبائل العربية، وقد عزا الزاوي الفضل للأستاذ العالم عمر النعاس الذي تكرم عليه فمكنه من الاطلاع على هذا

---

(13) أعلام ليبيا 8.

(14) أعلام ليبيا 9.

(15) أعلام ليبيا 8.

المختصر، وقد طلبه الشيخ الزاوي وهو مقيم في مصر، فأرسله إليه مع بعض أحفاده سنة 1955، فلما قضى الزاوي وطره من أعاده إلى صاحبه[16]، «وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان».

هذا ومما كلف الزاوي جهداً مضنياً في تأليف هذا الكتاب أنه واجه معضلة نسبة بعض الأعلام إلى طرابلس دون أي تمييز بين طرابلس الغرب وطرابلس الشام مما يتطلب من المؤلف الحذر والحيطة والصبر والأناة والاستقصاء والتنقير وإعمال الفكر.

ونرى الزاوي في هذا الكتاب يحاول التعرض إلى أنساب بعض من ترجم لهم محاولاً ذكر صلة قبيلة المترجم له بإحدى القبائل العربية التي دخلت إفريقية سنة 442هـ.

ولا يخفى ما في هذا العمل من مشقة ومحظور. ومضى الزاوي أبعد حيث حاول تسليط الأضواء الكاشفة على ما كان من فساد الحكم التركي في البلاد العربية، وذلك من خلال ذكره لبعض رؤوساء القبائل الذين أعلنوا الثورة وتمردوا على الحكّام الفاسدين وما كانوا يزاولونه من استبداد في البلاد، ولا ريب في أن هذا النوع من التراجم للأعلام لم تعن به الكتب المخصصة للتراجم؛ إذ كانت عنايتها الفائقة توجه لذكر العلماء، وينبه الشيخ الزاوي إلى أن هذا النوع من الرجال ما زال يحتاج إلى الدراسة والتمحيص ليفرق ما بين من كان يثور على الاستبداد والظلم والفساد وبين من كان يهب للسلب والنهب[17].

وبعد كل هذا الجهد المثمر نرى الزاوي، رحمه الله، يعلن دون مواربة أن هناك جنود مجهولين يقع علينا عبء الكشف عنهم، والتعريف بهم اعترافاً بفضلهم وإقراراً بدورهم وريادتهم.

هذا ما سمح به المكان والزمان عن معجم الشيخ الطاهر الزاوي للأعلام

---

(16) أعلام ليبيا 9.

(17) أعلام ليبيا 10.

الليبية، فماذا بعد عن معجمه للبلدان الليبية أيضاً؟ الحديث عن هذا المعجم يطول ويطول، لكننا سنحاول اختصاره كغيره من الأحاديث عن باقي مؤلفات الشيخ الطاهر وتحقيقاته كتب التراث. لقد كان هذا المؤلَّف كما يقول المؤلِّف زبدة رحلات وثمرة جولات في عموم بلادنا الليبية المباركة زمن الحرب والسلم، مما أتاح للمؤلف أن يعاين ما تركه الرومان واليونان من آثار هنا وهناك، واستطاع أن يعرف الكثير عن المدن والسكان، فكان يدون ما يراه ويسمعه من الثقات، ولم يكتف بهذا بل راح يفتش في الكتب المعنية لاستكمال المعلومات واستيفاء النواقص وإضافة الزوائد المتممة للفائدة المؤكدة للحقائق[18]، فمن هذه الكتب المعنية بالبلدان وشؤونها: كتاب (التبيان في تخطيط البلدان) لرأفت بك، (والمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) لأبي عبيد البكوي، و(معجم البلدان) لياقوت بن عبد الله الحموي، و(معجم ما استعجم) للبكري و(مراصد الاطلاع) لصفي الدين البغدادي، وكتاب (الروض المعطار في أخبار الأقطار) للحميري، وهذا الكتاب إبان رجوع المؤلف الزاوي إليه ـ كان مخطوطاً لم يطبع بعد، كل ذلك إضافة إلى بعض كتب الرحلات من أمثال (رحلة أبي عبد الله العياشي)، (ورحلة ابن رشيد الأندلسي)، وكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي، و(صفة بلاد المغرب) لليعقوبي، وكتاب (نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار) لمحمد بن مقديش الصفاقسي، إلى جانب بعض الكتب الحديثة التي تناولت بالدراسة البلاد الليبية أو بعضها مثل كتاب الدكتور إبراهيم رزقانه (محاضرات في تاريخ ليبيا)، وكتاب عمر رضا كحاله (معجم قبائل العرب)[19] وعني الشيخ الطاهر الزاوي بتعريف المدن والقرى تعريفاً مفيداً مختصراً غير مُخِلٍّ، وأرخ للمشهور منها، كما أتى على ذكر المدن الأثرية والجبال والأودية والمساجد والزوايا والمدارس والقلاع والعيون الجارية والآبار، ولم يفته أن يشير إلى ما تبقى في الصحراء من القصور الجاهلية، كما أولى عنايته ذكر الأحداث الهامة والحربية منها تلك التي

(18) معجم البلدان الليبية 5 ـ 6.

(19) معجم البلدان الليبية 7.

وقعت في المدن والقرى، ومضى ينبه ويلفت النظر إلى الأمكنة غير المعروفة، وذكر في هذا الكتاب ما عرف من أسماء البلدان القديم والحديث، وتلك ميزة تؤكد الصلة بين الماضي والحاضر، كما تنبه إلى ما من شأنه أن يحدث بمرور الزمان من اختلاف أو تحريف أو تطور، وراح يبحث عن الأصل اللغوي لبعض الألفاظ المستعملة لدى الطرابلسيين، وبصفة خاصة ما كان منها في الشعر العامّي الملحون، ولم يدّع لنفسه الكمال ولا لعمله الاستيفاء داعياً وراجياً أن يهتدي الباحثون بعده إلى أوضح وأصح وأكمل مما هداه البحث إليه[20].

وقد رأيناه يلفت النظر وينبه على الأسماء التي يظن أنها من أصل بربري، وزيادة على كل ما تقدم مضى يتتبع نسبة بعض القبائل العربية إلى أصولها الأولى ويبدو أن شغفه بالبحث وحبه للكمال ـ الذي تفرد به سبحانه وتعالى ـ قد قاده إلى أن يذكر عدد آبار البترول بليبيا، وهي أربعة وتسعون وسبعمائة بئر سنة 1965، وقد عرف مقدار ما تنتجه وإن لم يذكره في معجمه، واجتهد، رحمه الله، في تحديد المسافات بين كل بلد أو مكان، ولا ريب عندي في أنه كان بصيراً خبيراً مجرباً جلب أشطر الدهر وتغبّرها؛ لذا نراه ينسب الأماكن التي وثق وتأكد من صحة نسبتها إلى ملاكها الحقيقيين، ومما يسّر به شيخنا المرحوم الطاهر أحمد الزاوي استعمال معجمه للبلدان الليبية ترتيبه إياه على حروف المعجم، غفر الله له وأثابه كفاء ما قدم لوطنه وأمته الموحدة الواحدة،

أما كتاب الشيخ الطاهر الزاوي (جهاد الليبيين في ديار الهجرة من سنة 1343 ـ 1924 إلى سنة 1372 ـ 1952) فإنه في نظري من أهم وأوثق ما كتب عن التاريخ الليبي الحديث بعد كتابه الذائع الصيت (جهاد الأبطال في طرابلس الغرب).

وهذا الكتاب الذي وضع فيه المؤلف النقاط على الحروف وبين بجلاء وبصراحته المعهودة وصدقه وإخلاص نيته كل ما يتعلق بجهاد الليبيين في ديار الهجرة، وذلك من أجل وضع الحقائق أمام الناس في الضوء الكاشف لتكون

(20) معجم البلدان الليبية 7 ـ 9.

عبرة وإحقاقاً للحق وإنصافاً لمن ظلم وغمط حقه، وكشفاً لزيف وتضليل من قد يدعي ويزعم لنفسه أو لغيره ما ليس له أبداً.

ولقد بين المؤلف رحمه الله في المقدمة والتصدير أيضاً بعض ما قاساه المواطنون والوطن من جراء احتلال الفاشيست لليبيا إلى أن اقتلع حكم الأيطاليين من جذوره بعد الحرب الكونية الثانية التي أتت على الأخضر واليابس في العالم، وبذا حلت بالوطن قوة استعمارية جديدة كانت مواجهتها قدراً على الليبي حيثما كان. وقد كانت هذه القوى الاستعمارية مغايرة لما سبقها في وسائلها وأساليبها، الأمر الذي جعل الليبي في ميدان جهاد من نوع جديد مختلف يتطلب عدة مغايرة وأساليب مختلفة، ولم يتقاعس الليبيون عن الدخول في ميدان الجهاد كعادتهم دائماً، متذرعين بالإيمان والصبر والأمل، وساعين بالفطنة والحنكة واليقظة والمثابرة على العمل الجماعي الجاد الهادف.

نعم لقد كان الليبيون في المهاجر عند حسن الظن بهم، إنهم لم يهاجروا طلباً للراحة أو فراراً من الموت ولكن البغي والباغي اضطرهم إلى الهجرة بعد أن نفد ما بأيديهم من عدة وعتاد، وهكذا فإنهم لم يخلدوا للراحة، ولكنهم باشروا النضال بالوسائل الجديدة المتاحة منذ هبوطهم أراضي المهاجر في الشرق والغرب، فاندفعوا للعمل بكل ما أوتوا من قوة محافظين على كيانهم المميز حتى لا يذوبوا في أهل البلاد التي انتهى بهم المطاف إليها مهاجرين، تلك البلاد العربية والإسلامية التي استضافتهم وأكرمت نزلهم ومثواهم، ومن يومهم ذاك باشروا السعي الحثيث في ميدانين اثنين. . ميدان العمل الشريف لكسب القوت اليومي، وميدان الكفاح من أجل القضية المقدسة، قضية الوطن شغلهم الشاغل في الظعن والإقامة في الحضر والبادية، وقد وجدوا ما أعانهم في هذا السبيل من البلاد التي استضافتهم من بر وحسن معاملة وكرم ضيافة فمضوا يكدحون لتحقيق غاياتهم النبيلة. وقد حققوا بفضل الله ما حققوه من مكاسب لأنفسهم في الحياة وللوطن بشرف وعرق جبين.

كل هذا نعلمه من هذا الكتاب وبعبارة المؤلف الجلية الواضحة الأخاذة من غير مبالغة أو تهويل. ومضى الزاوي، رحمه الله تعالى، يكشف بأضوائه

الكاشفة ما كان للمهاجرين من نضال في سبيل القضية التي ظلت تشغل بالهم وتسيطر على إحساسهم وتملك تفكيرهم وهي القضية الليبية قضية وجود الوطن والمواطن على السواء.

ولم يغفل المؤلف أن يسجل في كتابه ابتهاج المهاجرين بطرد الإيطاليين الفاشيست بعيد اندحارهم في الحرب ضد الحلفاء، وذلك بإقامتهم حفلاً مشهوداً في الجمعية الزراعية في مصر سنة 1943، نظمته وأشرفت عليه ورعته الجمعية الطرابلسية، وبين أن هذا الاسم هو الذي أطلقه المهاجرون على الجماعة التي عنيت في مصر بأمر القضية الليبية، وقد كانت برياسة المرحوم السيد أحمد السويحلي، وأصبحت تلك اللجنة من يومها معروفة بهذا الاسم[21] الجديد، ومضت تحته تواصل جهادها في سبيل استقلال ليبيا ووحدة أراضيها، وذلك منذ سنة 1943، ثم عرج الزاوي على ذكر مبادىء هذه اللجنة الطرابلسية، كما بين رأيها في قضية الوحدة للأراضي الليبية وما قدمته في سبيل الاستقلال والوحدة التي ظلت الجمعية الطرابلسية مصرة عليها متمسكة بها لا تحيد عنها. مؤكدة في كل مناسبة إيمانها بالوحدة بدون قيد ولا شرط باذلة كل ما استطاعت في سبيل هذه الغاية الشريفة النبيلة التي أجمع عليها المواطنون قبل أن يلبس عليهم وتزيف رغباتهم.

بقي أن نقول في هذه الكلمة السريعة عن هذا الكتاب إن كتاب الزاوي (جهاد الليبيين في ديار الهجرة) سِجِلٌّ أمينٌ وافٍ لما كان يجري في الضوء والظلام قبيل استقلال ليبيا، وفي إمكان القارىء أن يقف على كثير من الخفايا والدسائس والمؤامرات التي كان يحيكها الاستعمار ويتولى تنفيذها عملاؤه الأصفياء «الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت جارتهم».

وبعد فعلينا أن نحمد للتاريخ الأمين ما دأب على تسطيره وحفظه في صفحاته مما فيه عبر لمن يعتبر، وإشادة بفعل المحسن وخزي وعار للخونة والعملاء في كل زمان.

---

(21) جهاد الليبيين في ديار الهجرة 15 ـ 16.

هذا عن جهود هذا المجاهد العالم المؤرخ فيما يتعلق بكتابة التاريخ الليبي قديمه وحديثه، ونختمه بالإشارة إلى كتابه الذي ذكر فيه ولاة طرابلس الغرب من أول الفتح الإسلامي العربي إلى نهاية العهد التركي، مشيراً إلى من تعاقب على حكم طرابلس من حكام من أجناس بشرية ثلاثة.. العرب والبربر والترك، وقد بين ما يمتاز به كل جنس من هذه الأجناس كما مثلها الحكام والحكومات المتعاقبة في مدة تزيد على ألف وثلاث مئة سنة، وفي هذه قد يختلف مع الشيخ الطاهر كثيرون؛ إذ إن الحكم على الجنس أو الأمة المستخلص من الحكم على الفرد منها قد يدخل في دائرة التعميم المؤدي إلى بطلان النتائج المتوخاة، وكثيراً ما قاد هذا إلى الأخطاء التي كان يمكن تجنبها.